

شعرية البدايات في الرواية التجريبية (بين الاستخدام "المناصي"، والوظيفة "النصية")

أ / أبو بكر مرزوق ؛ جامعة عمارثليجي - الأغواط

يُدرج مفهوم (البداية)، ضمن الدراسة "المناصية" - (Paratextuelle)، أو ما شاع
نعتُه بالعتبة النصية، حيث تتخذ البداية فيها موقع النص الموازي للمتن. وقد
تغدو البداية، في كثير من الأحيان، أقرب إلى جهة "النص" منها إلى جهة "المناص"،
عندما تعامل معاملة "الحبكة" الضامة لمكونات العمل الأدبي،
ومن البديهي أن تكون البدايات، عند المبدع، جزءاً من بنية النص ودلالته،
مهّدت إليه تلك الخميرة المهيأة - سلفاً - من خارج النص، إذ لا يمكن أن تَجِيء
المقدمات (ومثلها نصوص المقدمات) من العدم، وإنما تتخلّق وتتشكّل، لتبقى
فكرة قابضة في الذهن، في انتظار محقّق يدفعها نحو الفعل الكتابي.
إنّ التوصيف التقريبي، الذي يمنحه علماء النص لتقنية البدايات، هو: أنّها
فضاء نصي "برزخي"، يبرئ القارئ لأن ينتقل من خارج النص (عالم الواقع)، إلى
داخله (عالم المتخيّل)، وتكون عكسه "النهاية" في ذلك. ومكوّن البداية رقيق في
طباقته، هشّ في مادته، إذا ما تمّ تناولها كظاهرة نقدية؛ كون البداية قد تخلّقت
في رحم النقد الغربي؛ لا تكاد تتلاحم مع مفردات النص العربي، وواقع الفكر،
والجمالي، بل قد نجد بعض الجفاف والجفاء حينما تفرض على المبدع العربي
كممارسة علمية صارمة لا يجد لمفاهيمها حضوراً في تصوّراته الثقافية المعاصرة.

بيد أن تلمسها في التراث (النقدي والإبداعي) القديم، قد يحدّد بعض خصائصها، وإن لم تبدُ ناضجة كلّ النضج، حين نقف عند بعض مقولات النقد القديم في المطالع الشعرية، واستهلالات القصائد الكلاسيكية (الجاهلية). لقد عرفت "البدايات"، في التراث الأدبي القديم تحت مصطلحات عدّة، كالمطلع، والمقدمة، والابتداء، والمستهلّ، ثم عمّم المفهوم؛ ليغدو إجراءً فنيًا، يشمل مختلف الفنون النثرية: خطبة، ورسالة، ومقالة، وقصة، ورواية، ومسرحية.. غير أنّه لا يمكن الوقوف على خصائص هذه الأجناس الإبداعية - في كليته - إلّا من خلال المعرفة الدقيقة لأجزائه - والاستهلال أبرز أجزائه - إذ ما من شيء يتحرّك في المتن، إلّا وبداياته مبنوثة في الاستهلال، الذي هي أشبه ما يكون بالنواة المخصّبة، التي سوف تتحوّل - بعد تخلّقها - إلى كائن حي له حيّزه الوجودي، بيد أن العمل الأدبي - عبر هذه الأجناس - يبدو أكثر فنيّة، ومن ثمّ، أكثر صعوبة، وأشدّ تعقيدًا، لتعدّد خالقيه، وتعدّد رؤيتهم، ولخضوع قيمه الفكرية والفنية لمتغيّرات الأغراض والظروف¹.

شعرية البدايات في النص الشعري:

توجّه اهتمام الشعراء القدامى إلى مطالع قصائدهم قصد أسرّ سمع المتلقي، واحتلال ذاكرته، إذا ما ذهبت القصائد، أو نسيت بعض أجزائها، لتبقى المطالع شاهدة عليها، دالة على وجودها. إلّا أن الكلام عن مطالع الشعر القديم (المطالع الطللية في المعلقات) لا يجري على أساس أن هذه المطالع إنّما هي حلية تنافس فيها الشعراء وتباروا على تجويدها، بل إنّ هذه المقدمات الطللية عنصر لصيق بالقصيدة، وكيان عضوي ضمن بنية النص الشعري الجاهلي.

فقد كان للبيئة الجاهلية إسهامها الفاعل في معمار القصيدة المعلقة، وتحديد لها لهندستها، ذلك أن هذه الاستهلالات قد تلمح إلى ذلك النص الغائب،

الذي قنّع (من القناع) به الشاعر القديم هذه المقدمات، حين مثّلت لديه تلك التدفقات النفسية (الشعورية) المكبوتة حول مصير الإنسان، وذلك القلق الوجودي من هاجس الزمن، وما يمثله من مشاهد الفناء، الاضمحلال، والموت.. أو هاجس المكان، وما يجسده من صور الغياب والاختفاء والارتحال..

ومثل ما تنافس الشعراء في تجويد مطالعهم، وتوفير أسباب التعبير البليغ عن المقاصد بحسن الابتداء، ومراعاة مقتضى الحال، ومناسبة المباني للمعاني، فقد توقف النقاد عند هذه الظاهرة الفنية، ملتجئين لها التفسير التداولي، والتأويل الدلالي، مؤكدين أنّ "الشعر قفل، أوله مفتاحه، وينبغي للشاعر أن يجود ابتداء شعره؛ فإنه أول ما يقرع السمع، وبه يستدلّ على ما عنده من أول وهلة.."² بل مضوا إلى تقنين البدايات حتى لا تترك إلى التلقائية والعفوية وذلك بتقييد شعريتها حتى تكون مثالا يحتذى.

فها هو صاحب "منهاج البلغاء"، يشترط في أن يكون أول الكلام دالاً على ما يناسب حال المتكلم، متضمناً لما سيق الكلام لأجله مبيّناً وظيفة البداية الشعرية: "وَمَا تحسن به "المبادئ": أن يصدر الكلام بما يكون فيه تنبيه وإيقاظ لنفس السامع أو أن يشرب ما يؤثر فيها انفعالا ويثير لها حالا من تعجيب أو تهويل أو تشويق أو غير ذلك.."³.

بل لم يأل جهد في إبراز الخصوصية الجمالية للاستهلال، في إضاءة له، فيقول: "ولا يخلو الإبداع في "المبادئ"، من أن يكون راجعا إلى ما يقع في الألفاظ من حسن مادة، واستواء نسج، ولطف انتقال، وتشاكل اقتران، وإيجاز عبارة، وما جرى مجرى ذلك مما يستحسن في الألفاظ، أو إلى ما يرجع إلى المعاني من حسن محاكاة، ونفاضة مفهوم، وتطبيق مفصل بالنسبة إلى الغرض، وما جرى مجرى ذلك مما يستحسن في المعاني، أو إلى ما يرجع إلى النظم من: إحكام بنية، وإبداع

صيغة ووضع، وما ناسب ذلك مما يحسن في النظم، أو إلى ما يرجع إلى الأسلوب من حسن منزع، ولطيف منجى ومذهب، وما جرى مجرى ذلك مما يستحسن في الأساليب.."⁴

شعرية البدايات في النص القصصي:

شكّلت "البداية" تقنية ملزمة للنص السردي، تتولّى الاستحضار البانورامي للمحكي؛ تعرضه بين يدي المتلقي، تمهيدا استباقيا مكثفا للموقف السردى، ومكوّنا بنائيا مؤطرا لحبكته: بحيث تحفظ بها نموّه العضوي، وتحقّق من خلالها اتّساقه وانسجام عناصره. ومن هنا، تحدّدت "البداية" في العمل الروائي على مستويين:

- مستوى أول: حين تقوم فيه "البداية" بتقديم العمل الروائي كلّ، تهيئة للجو العام، الذي سوف تجري فيه الأحداث. وأبسط صوره: أن يكون مباشرا؛ يحقّق الدخول الفوري إلى الحكى، دون توسّل العناصر الإخبارية أو التمهيدات الصيغية السردية الصريحة. ولعل أشهر صيغه لها: تلك البداية الكلاسيكية في الحكايات الخرافية، التي تضطلع بمهمة: تقديم الزمن الأول، والمكان الأول، والشخصية الأولى، والخيط الحدّثي الأول، على صيغة: "كان في قديم الزمان، في مكان يدعى.. ، رجل اسمه.. ، وحدث أن..."

- مستوى ثان: تتموقع فيه البداية على رأس مقاطع العمل الروائي الداخلية، حين نجد استهلالا عند كل فصل، تكون مهمّته: تهيئة عملية الولوج السلس للحزمة الحدّثية التي تؤطرها الفصول، وفيها تظهر براعة المؤلف في جعل هذه البدايات (الثانوية) تعضد البداية الأم (الرئيسة)، دونما إحداث فجوة أو جفوة بين مفاصل العمل السردى. وهي عملية دقيقة مرهفة، وصنعة سردية حاذقة، قد يتداخل فيها مفهوم "البداية" الفني مع مفهوم "الحبكة" السردى.

وعلى أساس هذين المستويين، يكون التفريق بين البداية في "القصة"، والبداية في "الرواية"؛ كونها، في القصة، وحيدة؛ تتناسب مع الصوت الواحد، بينما نجدها في الرواية متعددة؛ تتناغم مع تعدد الأصوات.

شعرية البدايات في النص التمثيلي:

ومثلما تكون وظيفة البداية في العمل القصصي، تكون وظيفتها في العمل التمثيلي؛ حين تتولى زمام المشهد الأول في البناء المسرحي؛ فتقدم أكبر كمّ متاح من المعلومات عن الأشخاص والأحداث، وتتولى أمر دفعهما (دفع المواقف والعواطف) إلى أعلى ذروة تأزيم درامي ممكن، لتتولى فصول المسرحية - بعدها - مهمة تفكيك الصراع، عبر بنية الحوار، والتدرج به إلى الانفراج الهادئ السلس.

البدايات بين المبدع والمتلقي:

وقد تتجلى وظيفة أساسية فاعلة للبدايات، إذا نظر إليها من جهة المتلقي؛ ذلك أنّها تمثل - لديه - صورةً للإغراء الحاث على مواصلة القراءة، ومرحلةً أولى متقدمةً في بناء أفق الانتظار، يعضد بها القارئ تلك الخلفية الفكرية، والمرجعية الفنية التي ينطلق منها، في الحكم على المؤلف.

لكن البداية تبقى من اصطناع السارد، وتبقى دليلاً على احترافيته الفنية، بينما يبقى الانطباع الآني، الذي يغلق في ذهن المتلقي، لدى أول ولوج للنص - حيث النص لا يزال في أول تشكّله وتخلّقها - هو المشكّل المثالي لهذه العلائقية (النفسية/ الفنية)، يمثّل فيها النص إحالةً قبليةً في ذهن المتلقي، تؤسس لعملية تناصية أولية في عالم (الواقع)، تحيل - بدورها - إلى عالم (المتوقع)، الذي ينشده.

البدايات وبنية النص السردي:

لا يشترط في شعرية البدايات تموقعٌ محدّد، قد يفهم على أساس الدلالة المعجمية للمفوز "بداية"، أو مراعاة طبيعة النوع أو الجنس الأدبيين: (الاستهلال

في القصيدة الشعرية - التمهيد الحكائي في القصة والرواية - المشهد الأول في الفصل الأول في المسرحية..)، بل تؤخذ على أساس طبيعة الأسلوب الإخباري المعتمد، أو المهيمن على النص.

فقد تميل البدايات السردية - في معظمها - إلى الجمع بين "السردى"، و"الوصفى"، مما يفعل حركة الانتقال في فضاء الزمكان، وهذه الاستراتيجية التواصلية حتمية وجودية في الإنشاء القصصى؛ إذ من الصعوبة بمكان الفصل بين الوصف والسرد في الرواية لوشيجة التداخل بينهما، ذلك أنه من غير الممكن أن نصادف (وصفا) بمعزل عن (السرد)، ناهيك أن يكون الوصف وصفا خالصا، غير أنه لا وجود للسرد - كما يذهب إليه جيرار جنييت - من غير الوصف⁵. وعادة ما يميل السرد إلى الاقتضاب، ويميل الوصف إلى الاسترسال، لتبقى المسألة - بعد ذلك - مسألة نسبية، يصبح معها الأسلوب، من حيث الإيجاز والإطناب، بصمة فارقة، أو سمة مائزة لطريقة الكتابة عند المؤلف.

وقد يلجأ المؤلف إلى البدايات الحوارية (المشهدية)، كمؤشر على الحركة؛ ذلك أنّ المطلع الحوارى يحمل المتلقي إلى تقبل الحدث السردى دون تمهيد أو تدرّج، فافرضا عليه أن يكون طرفا في بناء النص، محفزا فيه أفق انتظاره، من خلال عملية شديدة خفيفة - وقد تكون عنيفة - لحبل التوقع، الذي يصنعه التشويق، وتمكّنه الإثارة اللغوية لحظة القراءة/ المشاهدة، على مستوى (الما - بعد)، من خلال العلامات النصية. وقد تحصل هذه التفاعلية على مستوى (الما- قبل)، عبر الإحالات التناسلية.

ولا ريب في أن ما يقوّي أثر الواقع في المطلع، هو: أن السارد لا يباشر وظيفة الحكى، فقط، بل يتجاوز ذلك إلى التورّط في الأحداث المحكية، مستعملا صوت ضمير المتكلم؛ فيغدو بذلك ساردا داخل السرد، حاضرا مشخّصا في المحكى، وقد

خولته هذه الحال إمكانية "تبئير" السرد على ذاته، دون سواه من الشخصيات أو الأماكن أو الأزمنة. ومن هنا، سوف يمثل صوت النص عندئذ: الأنا الساردة، والأنا المسرودة في آن واحد، مما يعطى الخطاب السردى نسبة عالية من قابلية التصديق، وحظاً أوفر من التبرير الفنى.

إنّ مرونة تعامل المؤلف مع زمن السرد، وتمثيله على زمن الحكى، قد يفرض منطقاً خاصاً، بل تشكيلاً سردياً مميّزاً - على مستوى هندسة البدايات- بالنظر إلى واقع الرواية العربية التجريبية.

فليست البداية في السرد مجرد عتبة للدخول إلى النص الروائى، وليست إغراء - دائماً - للقارئ على مواصلة فعل القراءة، بل يمكن القول: إنّ البداية قد تقف نصاً موازياً لنص الرواية الأصل، وقريناً معاضداً له، ومن ثمّ، سوف يكون الكلام عن شعرية البداية، من حيث تموقعها في النص، له دقته، ودلالته في بناء استراتيجية الحكى، وتمثّل زمنية السرد.

وعلى هذا المنطق/ الواقع، فإنّنا قد نصادف البداية - بوصفها تقنية مميّدة - في أول المتن، على أساس دلالة ملفوظها المعجمي، كما قد تتموقع في نهاية المتن، وفق تقنيات الزمن السردى، التي يتقصّدها الكاتب.

البدايات التناسية:

إنّ البداية - ومثلها النهاية - جزء لا يتجزأ من حبكة النص، التي زهد فيها كثير من الكتاب، بل عملوا على إلغائها، مضمّرين في ذلك غايتين:

- غاية تدرأ عنهم صفة العجز في فهم دورها، وأهميتها في معمارية النص؛ باعتبارها إحدى مكوناته.

- وغاية قد تحمل وجاهتها، إذا ما زعمنا أنّها استراتيجية مقصودة تتغيّا أن تجعل من النص حمّال أوجه، على اعتبار أنّ كثيراً من البدايات تتموضع في صورة

دليل مرشد، يقود المتلقي عبر علامات سيميائية منصوبة على سطح النص، يهتدي بدلائليتها في استراتيجيته القرائية

غير أنّ الفكرة التي نرمي إليها، من خلال هذه المقدمة، دقيقة؛ ترتبط باستراتيجية البدايات الروائية القائمة على مبدأ "التناصية"؛ أي: على نص ليس للمؤلف، يكون قد تناصّ فيه مع نص المؤلف تناصا واعيا - أو غير واع - ، ومن ثمّ، فإنّ هذه العلائقية النصّوصية التفاعلية بين نص (سابق)، ونص (لاحق)، لا بدّ أن تكون مؤسسة مفاهيميا وفنّيا، ممّا يستدعي مضاعفة الفعل القرائي؛ كونها لا ترتبط بمؤلف واحد، وإنّما، بأكثر من مؤلف، وهذه علّة هذه المضاعفة القرائية. ومن هنا فإنّ مهمّة المتلقي أمام هذه التناصية المضمرة بين النصوص - وهي تناصية قدرية لا يكاد ينجو منها لاحق من سابق - شاقة ومرهقة؛ نتيجة تجاذب النصوص، وتجاذبهما القرائي، واختلاف الرؤية ووجهات النظر في أثناء القراءة غير الممحصّة.

وبداية النص، عند المبدع، قد تكون معلّلة - فكريا (إيديولوجيا)، وفنيا (جماليات)، وتقنيا (شعريا) - في حدود أدبيته، وبنية نسقه الداخلي. بيد أنّها، إذا دخلت حيز "التناصية" المقصودة، وذلك: حين يصرّح المبدع بتعالق نصه، وتفاعله مع نص آخر، خرجت عن سلطة البنية، ودخلت مجالا تفاعليا يقوم على صراع الأفكار والرؤى، من جهة، وسلطة اللغة (عبر سيميائيتها التواصلية والدلالية)، من جهة أخرى. ولا عبّارة تعتدّ من هذه التناصية إلّا بما تسفره عن ميلاد نص جديد، هو نتاج تلاقح خميرة النص (السابق)، بمكونات النص (اللاحق).

أنموذج البدايات الإحالية: (رحلة ابن بطوطة وأبعادها التناسية

1. بين "رحلة ابن بطوطة"، ورواية "هاتف المغيب"

تمثّل رحلة (ابن بطوطة)⁽⁶⁾ حصيلة مشاهدات "محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن يوسف اللواتي الطنجي، وقد رصدها في أثناء تجواله، في بلاد الحجاز، والمشرق العربي، ثم في الشرق الآسيوي - الأوربي، وفي شرق إفريقيا. وقد رواها لـ (ابن عنان) المريني، سلطان (فاس)، وأحد ملوك الدولة المرينية في المغرب، حين استقرّ عنده، فإذا بالسلطان يأمر كاتبه (محمد بن جزي الكلبي) بتدوين هذه التجربة الثرية في كتاب سماه: "تحفة النظّار، في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار". وقد نشر الكتاب لأول مرة في باريس عام 1853، مع ترجمة فرنسية أنجزها المستشرقان: الفرنسي (فرانسوا ديفريمري)، والإيطالي (سان جينيّتي)⁽⁷⁾.

ولمّا كنّا بصدد رصد (البدايات) في العملين السريدين: "رحلة ابن بطوطة"⁸ لنجيب محفوظ، و"هاتف المغيب"⁽⁹⁾ لجمال الغيطاني، كان لزاماً أن نلتفت إلى بدايات نص "رحلة ابن بطوطة"⁽¹⁰⁾، بوصفه النص (الإحالي)، الذي استند إليه الكاتبان المصريان، تناصياً، لتقرير فكرة: أنّ التفاعل النصي مع هذا الأثر التراثي، شمل التناص "المقدماتي" أيضاً، وعلى هذا الأساس، أمكن عقد مقارنة موازنة/ مقارنة بين بداية النص الإحالي (رحلة ابن بطوطة)، وأثرها في بداية النصين المتأثرين (روايي الغيطاني، ونجيب محفوظ)، ثم عقد مقارنة ثانية بين هذين الأثرين، من باب العلاقة الثلاثية (المتعدّية) بين ابن بطوطة، ومحمّد، والغيطاني.

1.1. البداية في تحفة النظّار:

نلمس نوعين من البدايات: بداية "رحلية" و"بداية سردية":

1.1.1. البداية الرحلية:

ونجد شاهدها عبر هذا الملفوظ:

".. قال الشيخ أبو عبد الله: كان خروجي من طنجة، مسقط رأسي، في يوم الخميس، الثاني من شهر الله رجب الفرد، عام خمسة وعشرين وسبعمائة، معتمدا حج بيت الحرام، وزيارة قبر الرسول - عليه أفضل الصلاة والسلام - منفردا عن رفيق أنسُ بصحبته، وركب أكون في جملته، لباعث من النفس شديد العزائم، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازيم، فجزمت أمري ولم ابن على السكون، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكون، وكان والديّ بقيد الحياة، فتحملت لبعدهما وصبا، ولقيت كما لقيا نصبا، وسنيّ - يومئذ - اثنتان وعشرون سنة.. [التحفة: 20]

2.1.1. البداية السردية:

يمكن أن يقابلها في "تحفة النظّار" مقدمة (ابن جزي)، ابتداء من قوله: "وكان ممن وفد على بابها السامي، وتعدّى أوّشال البلاد إلى بحرها الطامي، الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق جَوّاب الأرض، ومخترق الأقاليم بالطول والعرض، أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة، المعروف في البلاد الشرقية بشمس الدين، وهو الذي طاف الأرض معتبرا، وطوى الأمصار مختبرا، وباحث فرق الأمم، وسبر سير العرب والعجم، ثم ألقى عصا التسيار بهذه الحضرة العليا (...) ونفذت الإشارة الكريمة بأن يملي ما شهدته في رحلته من الأمصار، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار، وعلمائها الأخيار، وأولياءها الأبرار. فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر، وبهجة المسامع والنواظر، من كل غريبة أفاد باجتلابها، وعجيبة أطرف بانتخابها..". [التحفة: 15]

2.1. البداية في هاتف المغيب:

يمكن التمييز بين بدايتين للحكي: بداية "سردية"، وبداية "رحلية":

1.2.1. البداية السردية:

جاءت البداية في "هاتف المغيب" متميزة المستهل، حيث استحضر الغيطاني فيه قصة رحلة "الفتية المغرّر بهم"، التي ذكرها الرحالة (الإدريسي)، في كتابه: "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"⁽¹¹⁾، نثبث ملفوظه (على طوله): يقول الغيطاني في مقدمة متن "هاتف المغيب": حدث جمال بن عبد الله، كاتب بلاد المغرب، فقال:

".. المؤكد أنّه جاء من المشرق، لم يرد إلينا أيّ إنسان من جهة الغرب، لواقع ذلك، لصار حدثاً عجبا، ديارنا آخر حدّ العمار اليابس، نقف على حافة المحيط الأعظم، بحر الظلمات، لم يصل إلى ضفته الأخرى أحد، وعاد ليقصّ علينا ما رأى، لكن.. لم يحل ذلك بين البعض وقصد المجهول.

هذا ما ترويه الحكايات عن إخوة سبعة، بنوا بأيديهم سفينة متينة، حمّلوها بزاز كثيف يؤمّن إبحارهم مدّة لم يسبقهم إليها أحد، اختلف القوم في تقديرها ... كان وداعهم مشهودا، مؤثرا، قبل طلوعهم، ظهر قوم، لا يدري أحد الجهة التي قدموا منها، أحاطوا بهم، وبادلوهم الودّ، ثم اسرّوا إليهم بما لم يسمعه مخلوق، وقفوا يرقبون فرد الأشرعة، ولحظة استدارة المقدمة، واتّجاه السفينة غربا.. اختفوا.

عرف هؤلاء رجال البريّة، منها جاءوا، وإليها مضوا، وإن لم يقطع أحد ولم يجزم. أمّا الأشقاء السبعة، فغربت أحوالهم، لم يقع بصر عليهم، تعاقبت أجيال بما يكفي للتأكّد من انقضاء أمرهم، بعض من القوم يشيعون يقينهم بعودتهم يوما، وأنّ كلّ شيء سيتبدّل فور قدومهم من جهة الغرب، تردّد هذا

خفية، ولو وقع الجهر به لعوقب قائله، وجرى له المكروه، مولانا اعتبر دعاويهم مخالفة للملة!..". [الهاتف: 5]

2.2.1. البداية الرحلية:

وشاهدها الملفوظي: "... يقول الفقير إلى ربه.. أحمد بن عبد الله بن علي بن عوض بن سلامة، الجني، الصعيدي، القاهري المنشأ، المصري المنبت: "إنّ خروجه من موطنه جرى يوم الأربعاء. التاسع من مايو، منذ خمس وأربعين سنة⁽¹²⁾، وربما خمس وخمسين، أو خمس وسبعين، المدى بعيد، والأمر مختلط، صعب القطع، وعر التحديد والإمام!.. عندما يقول التاسع، إنّما يحدّد اليوم، لكن مجمل المدة المنقضية غير يقيني.. ما يعرفه الآن بعد بلوغه بلاد المغرب، أنّ خروجه تمّ فجراً..". [الهاتف: 12]

2. البدايات الإحالية الروائية: (بين رواية "رحلة ابن فطومة"، ورواية "هاتف المغيب")

1.2. بداية رحلة ابن فطومة:

يقدم (نجيب محفوظ)، في "رحلة ابن فطومة"، قصة بطل الرحلة (قنديل)، وقد نشأ في بلد إسلامي عصري، اضطرعت فيه قوى الخير والشر. ولما لم يقدر على التكيف والتأقلم، ولم يستطع الصمود أو التصدي، يتخذ من الرحلة؛ خلاصاً من حيرته، فيشرع في البحث عن بلاد أخرى، ناشداً مجتمعاً آخر، تحققت فيه قيم العدالة، وتمثّلت فيه معالم المدينة الفاضلة، من دون الإعلان عن نزعة هروبية خلاصية، ذلك أنّ من بين مقاصد هذه الرحلة: معرفة عناصر القوة في الديار التي يقصدها، واستجلاها إلى ديار الإسلام علاجاً ودواء.

لقد أرسل الكاتب بطل روايته (قنديل) إلى بلاد جديدة، تمثّل القيم التي يريدها - حقاً - دواءً لديار الإسلام، وقد رتب نجيب محفوظ البلدان التي زارها بطّله "ابن

فطومة" ترتيباً يستند إلى تعدّد الأنظمة السياسية، والاجتماعية، والدينية، مراعيًا، في ذلك، مستوى التطور والتقدم:

1 - دار الإسلام: وهو مسقط رأس الرحالة ووطنه، الذي تشيع فيها مظاهر التخلف والانحطاط، والظلم والاستبداد؛

2- دار المشرق: ذات معالم وثنية بدائية، تمثلها القارة الإفريقية؛

3- دار الحلبه: تمثلها البلدان الرأسمالية؛

4- دار الأمان: تمثلها البلدان الاشتراكية؛

5- دار الغروب: تمثل "المطهر"، الذي لا بدّ من عبوره؛ للوصول إلى دار الجبل؛

6- دار الجبل: تمثل حلم الإنسان في تجاوز النقص الذي يعتور البلاد الأخرى،

والوصول إلى الهدف النهائي، والكمال، حيث السعادة الأبدية المطلقة.

تقدم نهاية رواية نجيب محفوظ (رحلة ابن فطومة) مثالاً للبدايات "المتأخرة"، حين يعتمد مؤلفها إلى وسم النهاية بقريئة لفظية صريحة، جاعلاً ملفوظ "البداية" مكان ملفوظ "النهاية"، كما جاء في آخر المتن⁽¹³⁾. وهذه التفاتة سيميائية بارعة تقصدها الكاتب للدلالة على عدم جدوى المراحل التي قطعها الرحّالة، وهو يجوب الديار: دارا، دارا، ويقطعها: مرحلة، مرحلة، منتهيا إلى نقطة البداية.

لقد كانت الرحلة إلى هذه الدار المثالية، بمثابة البحث عن المدينة "الفاضلة"، فلأجلها أقيمت تلك المقارنات بين تلك المشاهدات في "ديار الغرب"، ومقابلتها بـ "دار الإسلام"، على الرغم من تلك الحمولة الإيديولوجية التي انطلق منها الكاتب، حيث ترى أنّ أيّ تطوّر، إنما يقع على التطوّر العلمي، ممّا قد يوهّم بشيء من التناقض حين يكون بحث الكاتب عن مدينة "صوفية" بشروط "علمية".

لقد استعمل (نجيب محفوظ) ملفوظ "البداية" في نهاية روايته في ما حقه أن يكون "النهاية"؛ للدلالة على عدم جدوى المراحل التي قطعها الرحّالة، أين انتهت

به إلى نقطة البداية. لكن الكاتب يبقي النهاية مفتوحة عبر تقنية سردية ذكية، يمرّرها من خلال فعل حكائي (إرسال مخطوط ما دوّنه عن رحلته السابقة مع القافلة العائدة إلى (دار الإسلام)، وإتمام رحلته إلى (دار الجبل) بمفرده. وكأنّه يريد أن يفصل بين "ما كان"، وقد حدّد موقفه الفكري والوجداني منه عبر المخطوط، وبين "ما ينبغي أن يكون"؛ بالدخول في رحلة استكشاف (رحلة بحث ومساءلة)، بحيث لا يمكننا أن ندرك حيثياتها، أو نعلم ما سوف تنتهي إليه، اللهم إلا عبر تلك العلامات، التي كانت تؤشّر إلى بحثه عن مدينة مثالية صوفية فاضلة، هي (دار الكمال).

2.2. البداية في رواية "هاتف المغيب":

في رواية "هاتف المغيب"، ينطلق (الغيطاني) من بداية إحالية تقوم على تناسق اقتبسه من التراث العربي، ورد مناصبه العنوان في رحلة الإدريسي: "رحلة المفتية المغرّرين"⁽¹⁴⁾، حيث يكون البطل، في رحلته، امتدادا لخبر هذه الفتية.

".. حدث جمال بن عبد الله، كاتب بلاد الغرب، فقال⁽¹⁵⁾:" المؤكد إنّّه جاء من الشرق، لم يرد إلينا أيّ إنسان من جهة الغرب، لو وقع ذلك لصار حدثا عجبا، ديارنا آخر حدّ العمار اليابس، نقف على حافة المحيط الأعظم، بحر الظلمات، لم يصل إلى صفته الأخرى أحد، وعاد ليقص علينا ما رأى. ولكن.. لم يحلّ ذلك بين البعض وقصّد المجهول.

هذا ما ترويّه الحكايات⁽¹⁶⁾ عن إخوة سبعة بنوا بأيديهم سفينة متينة، حمّلوها بزاز كثيف يؤمّن إبحارهم مدّة لم يسبقهم إليها أحد، اختلف القوم في تقديرها ... كان وداعهم مشهودا، مؤثرا، قبل طلوعهم، ظهر قوم، لا يدري أحد الجهة التي قدموا منها، أحاطوا بهم، وبادلوهم الودّ، ثم اسرّوا إليهم بما لم يسمعه مخلوق، وقفوا يرقبون فرد الأشرعة، ولحظة استدارة المقدمة، واتّجاه السفينة غربا..

اختفوا. عرف هؤلاء رجال البرية، منها جاءوا، وإليها مضوا، وإن لم يقطع أحد ولم يجزم. أما الأشقاء السبعة، فغربت أحوالهم، لم يقع بصر عليهم.. [الهاتف: 6]

فعلى أساس هذا الاستهلال في "هاتف المغيّب"، ومن خلال المناص العنوانية: (النهاية البداية) في "رحلة ابن فطومة"، يمكن أن نستشعر وجود تلك الصلة التناسية الضمنية بين الأثرين؛ فانقطاع خبر "قنديل محمد العنابي"، وإيداع ما كتب من أوراق "المخطوط" عن رحلته، قد يوحي بأنّه امتداد لرحلة أحمد بن عبد الله، إذ إنّ الأوراق (الكتب)، التي كان يحملها، ليست إلّا ما قيّده في رحلته، التي غابت عنا، ونعني بها: (رحلة دار الجبل).

".. ظهر في حومة السوق وسط المدينة، قبالة المسجد الجامع، إرهاقه باد، ونصبه بين، تجمّع حوله صبية وبعض متسكعين، صاحوا عليه، وعندما رفع ولد غرّ حصاة ليقذفه بها، تردّد صوت مهيب يعرفه الكافة ويخشونه. فوق الدرج المؤدي إلى مدخل المسجد وقف الشيخ الأكبري المرابط - نفعنا الله به - .

التفت صاحبنا إليه.. تقدم حاملاً خرجه.. سبعة كتب عتيقة.. وقف دون الشيخ.. عندئذ سمعه القوم كافة يقول:

"إذاً.. جئت!".

جاوبه صاحبنا:

"نعم.."

- "وكيف الإخوان؟".

- "يوجّهون أرواحهم نحوك..".

قال الشيخ هادئاً:

"إذا.. سيبلغون مرساهم بإذنه..". [الهاتف: 7].

إنّ عودة إلى الأحياز المكانية التي زارها الرحالة في متن "ابن فطومة"، تنبّهنا إلى أهمية الدار (المدينة) الأخيرة، التي توقف عندها الكاتب، ذلك أنّ هذه الدار (دار الجبل) دار صوفية بامتياز، وهي الدار، التي يمكن اعتبارها أنجزه الغيطاني في "هاتف المغيب"، هو امتداد لها، ومن ثم، يمكن القول: إنّ الغيطاني بدأ من حيث انتهى إليه أستاذه، وأنّ مقاربتنا للتناصية المفترضة بين المتنين، معناها: الكشف عن النص المسكوت الذي يكمن في نص الغيطاني، على اعتبار أن التناصية الأولى وقعت بين رحلة "ابن فطومة" ورحلة "ابن بطوطة".

فرحلة الغيطاني، من حيث بنيتها الروائية الرحلية، كانت عميقة الوعي بهذه العلاقة الثقافية بين المشرق والمغرب، وليست فكرة رحلة "أحمد بن عبد الله"، من القاهرة، عبر الصحراء، إلى بلاد الغرب (المغرب)، إلا استكشافا لبعض مكونات الجسد العربي، الذي كاد يفقدها، ويفقد من خلالها هويته الثقافية، وامتداده الحضاري، أمام هيمنة الغرب.

إنّ رواية "هاتف المغيب" رحلة لاكتشاف الذات (الذات الجماعية)، أين يتمّ العبور من الجهل إلى المعرفة، ومن النقص إلى الكمال، ومن المادية إلى الروحية. وإنّ ملفوظ "الهاتف" في العنوان، وتكراره في المتن، لهو ترميز منبّه إلى ضرورة تحقّق وحدة الوجود القومي - بمعناه التاريخي - بعدما سعى المتن إلى تحقيق وحدة الوجود - بمعناه الصوفي - فليست وجهة هذه الرحلة المشرقية- المغربية جهة المشرق العربي (وقد ألفنا الرحلات العربية من المغرب إلى المشرق) إلا دلالة واعية على حتمية هذا الانصهار القومي، وعلى ضرورة تدارك هذه الفجوة والجفوة، من قبل أن تبتلع الوطن هذه الصحراء الجائحة، أو تسلمها إلى أعماق المغيب الأفل.

الهوامش:

- ¹ - ياسين نصير: الاستهلال (فن البدايات في النص الأدبي)، دار نينوى، دمشق 2009، تنظر المقدمة.
- ² - ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط. 5، 1981، ص: 1: 218.
- ³ - أبو الحسن، حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 2، 1981، ص: 310.
- ⁴ - المصدر نفسه، ص: 309.
- ⁵ - Seuil, 1969, P. 57. Figure II, Ed.: G. Genette
- ⁶ - الرحالة ابن بطوطة: هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن يوسف اللواتي الطنجي. ويعتبر ثالث ثلاثة رفعوا اسم المغرب العربي عاليا بعد (ابن رشد) و(ابن خلدون): إذ كان أكبر رحالة في التاريخ البشري كله. ولد بطنجة يوم الاثنين 17 رجب 703 هـ - 24 فبراير 1304 م، ثم يمسي - بعد عودته من رحلاته إلى المغرب - من جلساء السلطان (أبي عنان)، الذي أصدر أمرا لكاتبه (ابن جزّي) بتدوين رحلته قبل أن يتقلّد هذا الأخير منصب قاضي إقليم "تامسنا". في عهد السلطان عبد العزيز بن أبي الحسن، أخي السلطان أبي عنان، وبها توفي سنة: (777 هـ / 1377 م). ينظر: رحلة ابن بطوطة، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1996، 1: 81.
- ⁷ - محمد مظلوم: ابن بطوطة ورحلاته، من: "مختارات من تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، كتاب في جريدة، إصدارات منظمة اليونسكو، عدد: 97، سبتمبر 2006.
- ⁸ - نجيب محفوظ: رحلة ابن فطومة، دار الشروق، بيروت، ط. 3، 2008.
- ⁹ - جمال الغيطاني: هاتف المغيب، دار الشروق، بيروت، ط. 2، 2010.
- ¹⁰ - ابن بطوطة: تحفة النظائر في غريب الأمصار، وعجائب الأسفار، دار صادر، بيروت، 1992.
- ¹¹ - يقول الإدريسي: " فتية غزّروا بأنفسهم، فركبوا البحر المظلم، وظلّوا فيه أشهرًا، ثم عادوا، وكان ذلك في القرن الرابع للهجرة، وهم ثمانية رجال كانوا أبناء عمومة، أعدّوا مركبا

كبيرا، وزودوه بالماء والمتاع، ثم دخلوا البحر مع هبوب الريح الشرقية، وأجروا فيها مراكبهم نحو أحد عشر يوما، ولم يلبثوا أن انتهوا إلى مجهول، فأيقنوا أنهم هالكون لا محالة، فسارعوا إلى تغيير وجهتهم، فأداروا إلى الجنوب، وظلوا كذلك اثني عشر يوما، حتى رأوا جزيرة، فرسوا عليها، واطمأنوا إلى المكان. ولكنهم ما كادوا يذبحون شاة من أغنامهم ويعدون لها طعامهم حتى وجدوها شديدة المرارة، فانقلبوا إلى مراكبهم، وأقلعوا إلى الجنوب، وساروا اثني عشر يوما، فترأت لهم جزيرة فيها عمارة وحرث، فنزلوا بها، وبعد هنية أحاط بهم رجال منها، وساقوهم إلى المدينة، واعتقلوهم في دار بها، ظلوا فيها ثلاثة أيام. في اليوم الرابع، دخل عليهم رجل يتكلم بلسانهم العربي، فسألهم عن حالهم وغايتهم ومن أين جاءوا، فأخبروه بقصتهم، فطمأنهم ووعدهم خيرا. ولما نشطت الريح أخرجهم أهل المدينة في زورق وجروا بهم في البحر ثلاثة أيام. وبعد أهوال ومخاطرات وصلوا إلى بلادهم، فأطلق عليهم الناس اسم (الفتية المغررين!). ينظر: الرحالة الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نقلا عن كتاب: تاريخ الأدب، تأليف محمد الطيب المنادي، وإبراهيم يوسف، منشورات مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، 1962، صص: 205، 206.

¹² - تقاطع بين اسم الراوي والمؤلف في الاسم وتاريخ الميلاد. ينظر: أساليب السرد، صالح فصل: صص: 110، 111.

¹³ - نجيب محفوظ: رحلة ابن فطومة، ص: 124.

¹⁴ - وردت قصة هؤلاء في كتاب: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، للرحالة الإدريسي. ينظر: كتاب: تاريخ الأدب، تأليف محمد الطيب المنادي، وإبراهيم يوسف، منشورات مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، 1962، صص: 205، 206.

¹⁵ - السارد (الغيطاني)، يروي عن الراوي (جمال بن عبد الله، كاتب بلاد الغرب) ما حدث لـ (أحمد بن عبد الله بن عوض بن سلامة)

¹⁶ - نص رحلة الفتية المغررين: " فتية غرّروا بأنفسهم، فركبوا البحر المظلم، وظلوا فيه أشهرا، ثم عادوا، وكان ذلك في القرن الرابع للهجرة، وهم ثمانية رجال كانوا أبناء عمومة، أعدوا مركبا كبيرا، وزودوه بالماء والمتاع، ثم دخلوا البحر مع هبوب الريح الشرقية، وأجروا فيها مراكبهم نحو أحد عشر يوما، ولم يلبثوا أن انتهوا إلى مجهول، فأيقنوا أنهم هالكون لا محالة، فسارعوا إلى تغيير وجهتهم، فأداروا إلى الجنوب، وظلوا كذلك اثني عشر يوما، حتى رأوا جزيرة، فرسوا عليها، واطمأنوا إلى المكان. ولكنهم ما كادوا يذبحون شاة من أغنامهم ويعدون لها طعامهم حتى وجدوها شديدة المرارة، فانقلبوا إلى مراكبهم، وأقلعوا إلى الجنوب،

وساروا اثني عشر يوما، فترأت لهم جزيرة فيها عمارة وحرث، فنزلوا بها، وبعد هنيئة أحاط بهم رجال منها، وساقوهم إلى المدينة، واعتقلوهم في دار بها، ظلوا فيها ثلاثة أيام. في اليوم الرابع، دخل عليهم رجل يتكلم بلسانهم العربي، فسألهم عن حالهم وغايتهم ومن أين جاءوا، فأخبروه بقصتهم، فطمأنهم ووعدهم خيرا. ولما نشطت الريح أخرجهم أهل المدينة في زورق وجروا بهم في البحر ثلاثة أيام. وبعد أهوال ومخاطرات وصلوا إلى بلادهم، فأطلق عليهم الناس اسم (الفتية المغررين!)..". وردت قصة هؤلاء في كتاب: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، للرحالة الإدريسي. ينظر: كتاب: تاريخ الأدب، تأليف محمد الطيب المنادي، وإبراهيم يوسف، منشورات مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، 1962، صص: 205، 206.

